النزاع العنصري في صدر الاسلام

بين العرب وغيرهم (١)

كان لانتصار العنصرية العربية، وقوة نفوذها، وانتشار سلطانها في الحرب والسياسة، صدى في داخل المملكة العربية الجديدة وفي نفسية العرب . فنبه ذلك الامويين الى تصفية مظاهر حكمهم من كل شائبة غير عربية

كان العرب الى عهد عبد الملك يتعاملون بالسكة الاجنبية : فارسية ورومية . فلم ير من الكرامة للأمة العربية بعد فوزها العظيم أن لا يكون لها سكة خاصة تتأيد بها غلبة قوميتها ومظهر سلطانها . فعمد عبد الملك الى ضرب السكة العربية الخالصة، وأصدر أمره القطعي بحظر استعمال أية سكة اجنبية في طول البلاد وعرضها، ومعاقبة كل من يخالف ذلك من سكان البلاد . وهكذا أزال من البلاد ما قد يكون أثراً من آثار الأجنبي ونفوذه

كان الامويون في دولتهم الجديدة قد قلدوا الروم في استعمال الطراز الرسمي للملابس، وكان طرازهم الى عهد عبد الملك أيضاً رومي الصبغة واللغة، فبدله بطراز عربي في صبغته ولغته . وانشأ المعامل التي تصنع هذا الطراز العربي الخالص

كان العرب منذ أول عهدهم في الاقطار المفتوحة استعملوا لغات الحكومات السابقة في كتابة السجلات والدواوين ؛ لأنهم لم يكونوا قد مهروا في ذلك الأمر الذي يحتاج الى الوقوف على أساليب خاصة وطرق معينة، وتوهموا أن هذا لا يتقنه الا الروم والقبط والفرس وبلغاتهم . ولكن عبد الملك والوليد من بعده رأيا أن استمرار استعمال هذه اللغات في الدواوين الرسمية عائق في سبيل تعميم اللغة العربية بين طبقات الوطنيين، ومانع من ترقية اللغة العربية ومرونتها على

(١) فصل من كتاب تحت الوضع

أنواع الاستعمالات عدا كونه لا يأتلف مع الكرامة القومية في شيء . فنقلت الدواوين في عهدها من اللغات الوطنية الى اللغة العربية . وأنت تعلم أن رسمية اللغة ظاهرة من ظواهر كرامة الأمة واستقلالها كما أن السكة والطراز يدخلان في جملة ذلك . فكان في هذا العمل تثبيت تام لنفوذ العرب وتأييد قطعي لتفوق عنصريتهم وانتصارها في نزاعها

وكذلك لو تتبعت طريقة ادارة الأعمال على عهد الأمويين لرأيت أن جميع الأعمال الرئيسية كانت في يد العرب . فلم تكن ترى قائداً أو والياً أو قاضياً غير عربي معروفة أرومته . ومعنى ذلك استبقاء صفة السلطة والرياسة في العرب ، وعدم اعتبار العرب غيرهم اكفاء لهذا العمل العظيم . ويدل أيضاً على تمكن الروح القومية بصورة لاتستسيغ أن يكون ولاة الأمر والرياسة فى الدولة العربية من غير العرب فى حال

ومن هذا القبيل صرفهم الخلافة عن من لم يكن عربياً في خئولته ، أى عدم اعتبار من تكون أمه غير عربية كفؤاً للخلافة . فان مَسْلَمة بن عبدالملك الذي ظهر من قدرته وهمته وبلائه الحسن فى الفتوحات واطفاء الثورات ماجعله فى عداد أبطال العرب الكبار لم يتسنم عرش الخلافة ـ مع كونه ذا حق فيه وجدارةٍ له ـ الا لأن أمه غير عربية ؛ فلم يعهد له أبوه ولم يعهد له أحد من اخوانه ، مع أن سليمان عهد الى ابن عمه عمر ، وكان اخوه مسلمة محاصراً للقسطنطينية . وكأن مسلمة كان يرى ذلك طبيعياً الى درجة أنه لم تحدثه نفسه به أيضاً

على أن الشعور بالعزة القومية وبقوة الروح العنصرية لم يكن مقصوراً على هذه الرسميات فى هذه المرحلة ، بل كان منتشراً فى العرب على اختلاف طبقاتهم أيضاً . كانوا يرون أنفسهم أنهم اشرف أرومة وأكثر كفاءة وأبعد همة وأحق بكل عظيمة من غير العرب ، وان لهم الحق في أن يتفوقوا على غيرهم ويمتازوا

عن سواهم ، لأنهم أصل الهداية ومنبع الرشد ، ومحتد الكرم ، ومرد الخلال الشريفة ، وكانوا يسمون غيرهم بالحمراء ويلمو الى ولا يرونهم أكفاء لهم فى أية حالة من الحالات وعمل من الاعمال

رأى معاوية أن الموالى قد كثروا كثرة عظيمة فخشى أن ينازعوا العرب الامر وحدثته نفسه فى تشتيتهم وتقليل خطرهم ، وذاكر بعض ذوي الرأى من العرب ، فكان رأي سمرة بن جندب أن يقلل عددهم بالقتل والنفي والجلاء ولكن معاوية لم يعمل بهذا الرأي

أراد عبد الملك أن يصاهر أحد شريفى الاروماث ، المعروفي النسب من شيوخ القبائل فخطب بعض بنات ذلك العربى لبعض أبناء الخليفة فقال الشريف العربي لعبد الملك : جنبنى هجناء بنيك . والهجين فى لغة العرب من كانت أمه غير عربية وهي كلمة سبة وصغار

وصلت روح العزة العربية فيهم الى أن صار بعضهم لا يرى أن يأتم فى صلاته بغير عربى ، واذا ائتموا فانما يفعلون ذلك تواضعاً لله لا غير . وحتى روي عن بعضهم انه كان اذا مرت به جنازة عربى صاح واقوماه واذا مرت جنازة غير عربى قال « مال الله يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء » . وحتى أن عبد الله بن عامر دعا عليه أحد الموالى وقال له لا أكثر الله من أمثالك فينا فأجابه بل أكثر الله من أمثالك فينا ، فلما سئل كيف يدعو عليه وهو يدعو له قال « يمهدون طرقنا ويخصفون نعالنا ويخيطون ثيابنا » تصغيراً لشأن غير العربي ، اذ أن العربي كان يرى نفسه انه وجد للرياسة والحكم ، فليس يليق به أن يتناول المهن والاعمال الاخرى

على أن استقصاء أمثال هذه الحادثات أمر يخرج عن حدود بحثنا وهي كثيرة ممثلة بها كتب العرب من أدب وسير وتاريخ ، ولكن ما أوردناه منها للدلالة

على ما رغبنا في تقريره

ومع أن هذه الدرجة لفراط لا مسوّغ له ـ بحيث جلبت على العرب الحقد والبغضاء ، وتجاوزوا فيها المعقول والمنطق ـ فانها تدلنا دلالة واضحة على ما وصلت اليه العزة القومية والشعور بها عندهم

ولا ريب في أن ذلك ناتج عن المظهر القوي الذي ظهر به نفوذ العرب ، وامتداد أمرهم وسلطانهم من الصين والهند شرقا الى البحر الاتلانتيكي غربا : في هذه الاقطار الواسعة لغتهم منتشرة ، وحكمهم نافذ ، وكلمتهم هي العليا . قد دحروا أمامهم كل مزاحم ، وقضوا على أعظم دول العالم ، وتفردوا بالنفوذ والسلطان

كانت جيوشهم الفاتحة عديدة ومنتشرة في مشارق الارض ومغاربها ، تخفق عليها ألوية النصر ، وترعاها عين النجح والتأييد . فمنها جيوش مشرّقة للشمال تكتسح بلاد الترك من أقاليم فرغانة والشاش والصغد وتطأ أرض الصين ، وجيوش مشرّقة للجنوب تدوّخ بلاد البلخ والافغان والسند وتطرق باب الهند . ومع انها كانت تلقى كيداً شديداً في هذه البلاد لم تكن رأته في الشام وفي مصر ، فقد كانت تنتصر الانتصار تلو الانتصار ، فتنزل العروش وتفتح المدن ، وتدين لها الملوك ، وتضع يدها على مافي هذه الاقطار الواسعة من ثروة وغنائم ، وتقبل الناس على اعتناق دينها وتعلم لغتها

هذا في المشرق ، بينما كانت جيوشهم في المغرب تخوض المعارك مع البربر ، ثم تتطلع الى ما وراء البحار فتعبر الى ايبريا في أوربا ، فتهدم عرش القوط والجلالقة ، وتكتسح أكثر هذه الجزيرة ، وتؤسس نفوذها وتنشر دينها ولغتها وحضارتها . وفي الوقت ذاته ترسل جيوشاً جرارة فتخترق آسيا الصغرى من أولها لآخرها ، وتحاصر القسطنطينية حصاراً طويلاً وكأنها تحدّث نفسها أن تلتقي جيوشها المشرّقة بجيوشها المغرّبة لتطوق أوروبا وتدخلها في سلطانها ، كما

فعلت في آسيا وافريقية . وبعبارة اخرى كأنها أصبحت وارثة العالم لا معارض ولا مزاحم . لا تحارب الا وتغلب ولا تصدم الا وتفوز . لا يقف امام تيارها شيء ولا يحول دون سبيلها حائل

ولم تكن حالتها كحالة الامم البربرية التي كانت تخرج من منابتها فتكتسح البلاد ، وتدمر معالم مدنيتها ؛ بل أظهرت ـ رغم الفترة الطويلة التى قضتها في الجاهلية ـ من المرونة وقابلية الاستعمار والنجاح في أساليبه ما ترك لها ذات الاثر الذى تركته انتصاراتها الحربية أيضاً

لم يسبق أن عانت أمر البحر والملاحة ، ولكنها لم تكد ترى ضرورة ذلك في هبتها الجديدة حتى باشرته فنجحت فيه : فأنشأت الاساطيل ، وغزت الجزر والسواحل ، وغلبت سادة البحار ، وتفردت فيها بالنفوذ كما تفردت في نفوذ البر . كذلك لم تلبث أن سارت على أساليب الحياة المدنية ، ومرنت على النظام واتقان الاعمال الرسمية ؛ فدونت الدواوين ، وضربت النقود ، وانشأت دور الصناعات ، واستغنت بالعرب والعربية عن كل صبغة أجنبية . ثم التفتت الى العمران فأنشأت المدن وعمرت القصور ، وأقامت المساجد ، ومهدت الطرق . وهكذا ظهرت في حياتها الجديدة بحلية كأنها ابنة بجدة المدنية

ولعل العرب الذين خرجوا من الجزيرة فى هذه الموجة الاسلامية كانو أعظم عدد خرج فى الموجات الاولى ، فانتشروا فى شرق الارض وغربها ، وكان منهم العدد الكافى لتأليف هذه الجيوش الجرارة : من محاربة ، ومرابطة ، وصائفة ، وشاتية ، وبرية ، وبحرية . ولايجاد كتل عربية كبرى فى جميع الاقطار التى فتحتها ، فكانت سبباً فى تعريب اكثرها

ولعل هذا الدور كان أغزر أدوار العرب إنجاباً للرجال : من خلفاء ، وقواد ، وامراء ، وولاة ، وحكام ، وعلماء . وكان اكثرهم فى اعمالهم المثالَ الذى يجدر

بالتأسي ، والقدوة التي تخلق بالاتباع . فمهدوا للأمة العربية ما مهدوه من هذه العظمة الخالدة والسلطان الواسع ، فحق للعرب ولاشك ان يروا انفسهم مثل ما رأوها وان يحلوها المركز السامي الذي أحلوها فيه

وها نحن نرى الانكليز الآن يرون انفسهم في مستوى أعلى من مستوى غيرهم . وكأنهم من جبلة غير جبلة البشر . وما ذلك الا لأنهم يرون أنفسهم متفوقين عنصرياً على كثير من غيرهم بالقوة والثروة وسعة السلطان . وأنت عليم أنه يوجد في هذا العالم أمم راقية ودول عظيمة ، ومنها ما يزاحم نفوذ الانكليز ويضاهيهم في قوتهم وثروتهم ، فلا غرو اذا رأينا الشعور بالعزة القومية قد بلغ في العرب هذا المبلغ البعيد ، ولم يكن حينئذ في الدنيا غيرهم عظيماً في سلطانه ، عظيماً في مظهره ، مزاحماً لهم في نفوذ او قوة او سلطان

نابلس محمد عزة دروزه

﴿ رسالة ايمان العرب ـ للنجيرمي ﴾

لما كتبت ترجمة أبي اسحاق النجيرمي في العدد الماضي من الزهراء لم أكن رأيت أحداً ذكر رسالته في (أيمان العرب) غير الزبيدي في تاج العروس (مادة نجيرم) . وقد علمت الآن من حضرة صاحب السعادة العلامة المحقق أحمد تيمور باشا أن البغدادي ذكر هذه الرسالة في موضعين من خزانة الادب (١ : ٢٣٤ ـ ٢٣٥ * و ٣ : ٢١٠)

﴿ أموات الاحياء ﴾

مقابر من ماتوا مواطن راحة فلا تكُ إثر الهالكين جزوعا
وإن تبك ميتاً ضمه القبر فادّخرْ لميت على قيد الحياة دموعا

اسماعيل صبري باشا